# الباب السابع

## فى تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله ذلك على أجمل الطرائق

قال رضى الله عنه: قال سهل بن عبد الله:

لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العدّ والإحصاء، وكونوا من أبناء الأزل أشقىٌ أم سعيد؟

ثم قال رضى الله عنه: يقول أحدهم: صلّيت كذا وكذا ركعة، صُمت كذا وكذا شهرًا، ختمت كذا وكذا ختمة، حججت كذا وكذا حجّة، فهؤلاء من أبناء العدّ والإحصاء فهم إلى عدّ سيّئاتهم أحوج منهم إلى عدّ حسناتهم.

وأما أبناءُ الدهور فيقول أحدهم: لى فى طريق الله سبعون سنةً، لى فى طريق الله ستّون سنةً.

وكونوا من أبناء الأزل أشقىٌ أم سعيد يعنى: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتّكلوا على مالكم من العلم والعمل، ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضى الله عنه: قال بشر الحافى رضى الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهى الشواء فما صفا لى ثمنه.

فقال الشيخ رضى الله عنه من ظنّ أن هذا الشيخ مكث أربعين سنةً ما وجد درهمًا حلالاً يشترى به شواءً فقد أخطأ؛ من أين له فى الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس، وإنما المعنى فى ذلك أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون فى شىء ولا يخرجون من شىءٍ إلّا بإذن من الله وإشارة، فلو أذن له فى أكل الشواءِ لصفا له ثمنه.

وقال رضى الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباحٌ، وحلالٌ، وطيّب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على آخذه عقاب ولا فى تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك ببال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

والطيّب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء إذ لا وصف له مع مولاه.

والصافى هو ما عاينه العبد من المنبع، يعنى من عين قدرة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضى الله عنه: قال الجنيد: أدركت سبعين عارفًا كلّهم يعبدون الله على ظنٍّ ووهمٍ حتى أخى أبى يزيد لو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ: معنى قوله: يعبدون الله على ظنٍّ ووهم لا يريد بذلك ظنًّا فى المعرفة ووهمًا فيها؛

وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم! وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهّموا أن ليس وراءها للموقنين مقام؛ فقال الجنيد: لو أدرك صبيًّا من صبياننا لأسلم على يديه، أى لبيّن له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى مالا آخر له، ومعنى لأسلم على يديه أى لانقاد له فالإسلام هو الانقياد.

وقال رضى الله عنه فى قول أبى يزيد: خضتُ بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أى فلو كنت كاملًا لوقفت حيث وقفوا وهذا الذى فسر الشيخ به كلام أبى يزيد هو اللائق بمقام أبى يزيد، وقد قدّمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلًا ثم رشحت منه رشاحة فما فى باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هى للأولياء.

والمشهور عن أبى يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد فى المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخم فى حائط المسجد، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها؛ أوّلناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم، فقد قال ﷺ:

«ولا تظنّن بكلمة برزت من امرئٍ مسلم سوءًا وأنت تجد لها فى الخير محملًا».

وقال رضى الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبى إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائل فقال: يا سيدى قد جاء أن الصدّيق قدِّم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته فى قلبه.

فقال: من أين لكم هذا اللبن؟

فقال له غلام: كنت تكهّنت لقوم فى الجاهلية فأعطونى ثمن كهانتى.

فتقيأه أبو بكر رضى الله عنه ثم قال:

«والله لو لم يخرج إلّا بمصارينى لأخرجته»[1].

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدِّم له طعام فيه شبهة والصدّيق أوْلى بكل مزية من سائر الأمة وقد وُزن بالأمة فرجحها!

فقال الشيخ رضى الله عنه: الصدّيق رضى الله عنه كالوكيل المفوض إليه، مطهّر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل فى شىء بنفسه وهواه، وأبو بكر رضى الله عنه طهر من النفس والهوى فلا يحتاج إلى إشارة.

واعلم أن من حسن اختيار الله لأبى بكر أن تناول من ذلك اللبن حتى تكلّف طرحه بعد شربه

---

(١) رواه البخارى.

فيثيبه الله على ذلك، وأيضًا ليجعله قدوةً للعباد فيقتدى به من أكل طعامًا فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قيئه.

وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم، فإن أبا بكر ما سأل عن اللبن إلّا حتى وجد له كدرة فى قلبه، دلّ ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر فى القلب كدرةً أو قسوةً وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصيص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو ممّن حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم السبيل للعباد، كما كان من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوةً للتائبين، وحتى يتعرّف إليه بحلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، ويوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلمه أنه اللطيف بعباده المؤمنين، وليكون أكل الشجرة سببًا فى النزول، والنزول سببًا فى الخلافة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: أكرم بها معصية أورثت الخلافة.

وقال: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله ﴿إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة﴾. وقد بسطنا القول فى هذا الموضع فى كتاب التنوير[٢] فلا نعيده.

وقال رضى الله عنه: إنما بدأ القشيرى فى رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لأنهما كانا قد تقدّم لهما زمن قطيعة ثم أقبلا فأقبل الله عليهما فبدأ بذكرهما بسطًا لرجاء المريدين الذين كانت تقدّمت منهم الزلّات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العنايات؛ إذ لو بدأ بالجنيد وسهل بن عبدالله التسترى وعتبة الغلام وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله لقال القائل: ومن يدرك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات.

وقال رضى الله عنه فى الحكاية المشهورة عن سمنون المحب أنه كان ينشد:

وليس لى فى سواك حظ فكيفما ما شئت فاختبرنى

فابتلى بعلّة الأسر وهو احتباس البول، فتجلّد يومًا فزاد الألم، فتجلّد الثانى فزاد الألم، فتجلد ثالثًا ورابعًا فزاد الألم فهو فى صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصحابه قد أتاه وقال: يا سيدى

---

(٢) قال ابن عطاء الله فى كتابه التنوير:

فائدة جليلة: اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عنادًا ولا خلافًا، فإما أن يكون:

نسى الأمر، فتعاطى الأكل وهو له غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ أو إن كان تناوله ذاكرًا للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له:

﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملَكين أو تكونا من الخالدين﴾.

فلحبه فى الله، وشغفه به أحبّ ما ؤديه إلى الخلود فى جواره، والبقاء عنده، أو ما يؤدّيه إلى الملكية؛ لأن آدم - ﷺ - عاين قرب الملكية من الله فأحبّ أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التى هى أفضل، أو التى هى فى ظنّه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضًا أيهما أفضل؟ الملكية أم النبوة؟ لاسيما وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾.

قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا، فكان كما قال الله تعالى: ﴿فدلّاهما بغرور﴾.. إلخ. - التنوير ص ٧٤ - ٧٥.

سمعت البارحة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله وتسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثان وثالث ورابع لم يكن هو سأل، فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

فقال الشيخ رضى الله عنه: رحم الله سمنونًا عوض ما قال: «فكيفما ما شئت فاختبرنى». كان يقول: فكيفما شئت فأعف عنى فطلب العفو أولى من طلب الاختبار.

وقال رضى الله عنه فى الحكاية المشهورة التى ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته: قال الجنيد: دخلت على السرى فوجدته متغيرًا فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيرا؟ قال: دخل على شاب آنفا فقال لى: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك. فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فماذا تقول أنت يا أبا القاسم؟

قال: فقلت: القول عندى ما قال الشاب؛ لأنى إذا كنت فى حال الجفاء ثم نقلنى إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال الشيخ رضى الله عنه: كلام السرى أتم من كلاميهما؛ لأن كلام السرى يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات.

والجنيد لم يكن فى ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة، وكذلك الشاب، فتكلما على أحوال أهل الارتقاء فى نهاياتهم، فكلامهما يخص حالهما وكلام السرى مهيع[٣] مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضى الله عنه.

وقال رضى الله عنه فى قول بعضهم: لا يكون الصوفى صوفيا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل بكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: امكث فعسى أن يتوب. إلى أن يبلغ عددا إما السبع وإما العشر - الشك منى - فحينئذ يكتبها سيئة، فلذلك جاء صاحب اليمين أميرا على صاحب الشمال.

---

(٣) المهيع: الطريق الواسع المنبسط.